الشدياق والطبقة العاملة في انكلترة

د. جبور عبد النور

شخصيتان مشرقيتان كبيرتان : الشيخ رفاعة الطهطاوي(١٨٠١ ــ ١٨٧٣) ، وفارس الشدياق (١٨٠٤ ــ ١٨٨٧) بهرتهما انوار الغرب في القرن التاسع عشر . فكان لكل منهما موقف مميز عن الآخر . وكان الاول يقبل على دنياه الجديدة بحذر وأناة ، ويعيش في برج عاجي فلا يتبين من المجتمع الفرنسي الا خطوطه العريضة . وكان الثاني يخوض في صميم الحياة نفسها ، متصلا بالمثقفين ، مترددا على صعاليك الاحياء ، متفحصا اصناف الناس . وعيناه تستكشفان محاسن الغرب ومعايبه، مبينا في كتبه واقع المجتمع في مختلف طبقاته، مثيرا عددا من القضايا المصيرية التي شهدها ما بين ١٨٣٤ و١٨٦٠ . من اهمها : قضية الطبقة العاملة في بريطانيا ، موضوع كلامنا .

★ ★ ★

قد ننسب الى فارس الشدياق في السطور الآتية الخوض في فن لم يقصده عن وعي او غاية مبيتة . فما فكر يوما ، على ما نعتقد ، في ان يكتب صفحات يعالج فيها ما نسميه في تعبيرنا العصري فن الرحلة . وما كان ليخطر في باله ، لما اخذ القلم ودوّن مشاهداته وخواطره ، ان دارسنا سيأتي من بعد فيحلل معانيه وطرائقه في العرض والتفصيل والتعليل، وينتهي من كل ذلك الى انه قد شاء ، حين نوى الكتابة ، التصنيف في الرحلة ليكون من بعد طليعة في هذا الفن . ففي مثل هذا الزعم تشويه لواقع الرجل ، وجهل بطبيعته الادبية ، وحصر لشخصيته ضمن اطار معين يحد من تطلعاته ، ومن بدواته المبتكرة ، وفيه ايضا انتقاص من البواعث النفسية والفنية المتلازمة التي حفزته الى ان يخوض في نوع طريف من الادب تتبدى فيه نفس بشرية نابضة بحرارة الحياة ، مستوعبة الاشياء الظاهرة ، ومعبرة عنها تعبيرا بلاغيا وواقعيا لا مثيل له في العربية آنذاك .

نشأ الشدياق في بيئة لبنانية مليئة بالمتناقضات المذهلة والعواطف العنيفة ، ووقف وجها لوجه امام دنيا عجيبة اختلطت فيها المفاهيم ، وتفلتت الاهواء والغرائز، فملأت سنواته الاولى بمزيج من زهو الطفولة والحداثة ورخاء العيش ، ثم انقلبت عليه بؤسا وتشريدا ، فمزقت شمل اسرته ، وزرعت الضغينة في قلوب اخوته . واذا بيدها تمتد فتقتلعه من منابته ، وتطوح به بين اغراب، سعيا وراء رزق عصي ، متزلفا ، شاكرا بلسانه ، ناقما في قلبه ،ثم توقفه ، من بعد ، وقد تفتحت عيناه على حقيقة واقعة ، امام عالم جديد في كل مقوماته : في فهمه الحياة نفسها ، في العادات والتقاليد ، في المسكن والملبس والمطعم ، في طبيعة الارض ، في الطيور والازهار والنباتات، في تحديد الخير والشر والحلال والحرام ،كأن المشرق العربي قد تقلص وتقمص جسم الشدياق ونفسه ليطرح قزما امام الغرب المارد .

★ ★ ★

كثر هم المشارقة الذين اذهلهم الغرب في القرن التاسع عشر ، وبهر عيونهم بمنجزاته ، فوقفوا عاجزين عن وصف ما شاهدوه ، وعن ايضاح خواطرهم ، ولكن قلة منهم حافظت على برودة اعصابها ، مستمدة طاقتها من جذورها القديمة فتفحصت الغرب المتطور كظاهرة من الظواهر الاجتماعية ، فعل الكيماوي في اكبابه على تحليل الاجسام لاكتشاف خصائصها . من هؤلاء اثنان يأتيان في الطليعة وان اختلفا في الطباع ، هما رفاعة الطهطاوي وفارس الشدياق .

فالاول وضع كتاب تخليص الابريز في تلخيص باريز ، (طبعة اولى ، القاهرة ١٨٣٤) ، والثاني اصدر الواسطة في معرفة احوال مالطة ، (طبعة اولى ، ١٨٣٤) والساق على الساق ، (طبعة اولى ، باريس ١٨٥٥) وكشف المخبا عن فنون اوروبا (طبعة اولى ، تونس ١٨٦٦) . وما من شك في ان الشدياق قد قرأ رحلة الشيخ الطهطاوي واعجب بمضمونها ، وتبين احتفال الناس بها ولا سيما عناية المستشرقين . فقد تقدم بها صاحبها مخطوطة سنة ١٨٣١ من اللجنة الفاحصة في باريس ، في الامتحان النهائي على انها تضم اقساما موضوعة وضعا ،واقساما اخرى مليئة بالنبذ المترجمة في مختلف العلوم والانظمة الفرنسية. ورأى فيها قراؤها العرب عالما جديدا يتفتح امامهم فيذهلهم ما فيه من مستحدثات اوروبية . ولسنا في حاجة الى القول ان الطهطاوي انطلق من بيئة ازهرية مقفلة ومصفحة ضد كل تسرب غربي ، وان موقف الشدياق في ذلك يختلف

كل الاختلاف ، لانه الف في لبنان رؤية الاجانب والتحدث اليهم ، والاطلاع على انماط حياتهم اليومية .

اما رفاعة فقد كان خالي الذهن منهم ، يدهشه كل ما يراه منهم . فاذا ابصر الفرنسيين مثلا يقعدون على الكراسي وراء الموائد ويتناولون طعامهم في صحون وبسكاكين وملاعق بلغت به الدهشة اقصاها ، وكذلك امره معهم اذا شاهدهم ينامون على اسرة مرتفعة عن الارض، او ابصر نساءهم سافرات الوجوه والرأس والنحر ، منصرفات الى أعمال لا يقوم بها في الشرق الا الرجال . وظل احتكاك الطهطاوي بالحياة الاجتماعية الفرنسية سطحيا طول اقامته في باريس ، لان سياسة محمد علي والمسؤولين عن البعثة قضت بعزل المرسلين حتى لا يفسدهم الاختلاط ، ولا تجرفهم الحياة الباريسية في تيارها فيتوجه انتباههم الى شؤون بعيدة كل البعد عن رصانة العلم . فانزلوا كلهم في العام الاول في بيت واحد، وفرضت عليهم المراقبة الشديدة بحيث ظلوا يستمعون الى اصداء الحياة من بعيد ، ولا يخوضون فيها مباشرة . ثم اتضح ، بعد مرور سنة على نزولهم ، ان احتكاكهم بالطلاب الفرنسيين امر لا مفر منه اذا شاءت السلطة المصرية والهيئة المسؤولة عنهم ان يتعلموا النطق الصحيح باللغة الاجنبية ، فوزعوا على عدد من المدارس ، ومع ذلك استمرت المراقبة عليهم بحيث لا يسمح لهم بالخروج الى المدينة الا في ايام الاحاد والعطلة . وكان عليهم ان يقدموا حسابا عسيرا على نتائج دروسهم ومقدار ما حصوه في كل فصل من الفصول . وكان محمد علي يتلقى التقارير من المسؤولين ، ويؤنب المتقاعسين ، ويشجع المجتهدين . وكل هذا يوضح لنا لماذا جاءت رحلة رفاعة الطهطاوي عاجزة عن تمثيل الحياة الاجتماعية نفسها بصدق وواقعية . ومع ذلك فلا بد من القول ان الشيخ قد اطلع على الجرائد والمجلات ، واكب على الكتب التي تبحث في النظم السياسية ،وعرف طبيعة الاحزاب الرائجة هناك ، وتكلم على كل ذلك كلاما طويلا ، قد يكون جزءا من القسم المترجم في رحلته . وتوقف عند مراحل من تاريخ فرنسة ، واشار الى الثورة الكبرى،والى تسلم نابليون السلطة ، والى الحروب التي شنها ، والى انهزامه من بعد ، والى رجوع الملكية ،وتكلم على الصحف وعلى حرية الرأي فيها وفي المحافل ، وذكر المعارف والعلوم التي تدرس في الجامعة ، والنظم التي ترتكز عليها الدولة الفرنسية .

مع كل هذا فقد ابصر الشيخ رفاعة البلاد وافاض في وصفها من خلال النصوص التي قرأها ، واوجز في الجوانب المرتبطة بحياة الناس انفسهم لان ازهريته قد اقتضته اتخاذ هذا الموقف . فهو ما يفتأ في كتابه يحض ديار الاسلام على البحث « عن العلوم البرانية والفنون والصنائع » . ويقول : « لعمر الله انني مدة اقامتي بهذه البلاد في حسرة على تمتعها بذلك وخلو ممالك الاسلام منه » (١) . ويحتفظ في كل ما يبديه من تعليقات بخط واضح للارتداد عند الخطر ، فيقول :« من المعلوم اني لا استحسن الا ما لم يخالف نص الشريعة المحمدية » (٢) . ويقول :« مثلا البلاد الافرنجية قد بلغت اقصى مراتب البراعة في العلوم الرياضية والطبيعية وما وراء الطبيعة ، أصولها وفروعها ، ولبعضهم نوع مشاركة في بعض العلوم العربية ، وتوصلوا الى فهم دقائقها واسرارها ، غير انهم لم يهتدوا الى الطريق المستقيم ، ولم يسلكوا سبيل النجاة ، ولم يرشدوا الى الدين الحق ومنهج الصدق ، كما ان البلاد الاسلامية قد برعت في العلوم الشرعية والعمل بها ، وفي العلوم العقلية ، واهملت العلوم الحكمية بجملتها ، فلذلك احتاجت الى البلاد الغربية في كسب ما لا تعرفه وجلب ما تجهل صنعه . ولهذا حكم الافرنج بأن علماء الاسلام انما يعرفون شريعتهم ولسانهم ، يعني ما يتعلق باللغة العربية ، ولكن يعترفون لنا بأنا كنا اساتيذهم في سائر العلوم وبقدمنا عليهم »(٣) .

فالطهطاوي والشدياق يختلفان اذا ابتداء من نقطة الانطلاق . فالاول رحل في سبيل التثقف ، وكتب عن الرقي العلمي والعملي والذي قرأ عنه في ديار غربته . وما كان انفصاله الوقتي عن مصر ومجتمعه الا عارضا ، يعود من بعد حاملا محصل المعارف الحديثة التي تتفق وعقيدة قومه وتقاليده ، ولا تزعزع اية دعامة من دعائم الدين او الاسرة او النظام السائد ، بل تشد هذا النظام وتقويه، وتضع بين يديه امكانات عصرية في بسط نفوذه وتعميق اثره . فهو — ان مرت في ضميره خاطرة في التبديل والتغير — لا يجرؤ على التعبير عنها بصراحة لخشيته ان يأتي يوم يرغم فيه على تبرير اقواله ، وموقفه . فلا يجد اليه سبيلا . ومع ذلك فان الرجل كان طليعة فكرية في عصره ، وكان لكتابه تأثير بليغ في النخبة التي احاطت به ، وفي جماعة المثقفين الذين اخذوا عنه واجالوا النظر في انواع الحكومات ، وفي طبيعة النظم السياسية وخصائصها ومجالي النواقص والفضائل فيها، ووازنوا ، في خفر ، بين ما هم عليه في الارض المصرية وما عليه الدول الغربية من مشاركة فعلية في السلطة ، لينتهوا من ذلك الى ان مصدر السلطة كلها هو الشعب ، وان الحكام ليسوا الا جماعة ينتدبها الشعب نفسه لتنفذ القوانين المتفق عليها .

وجلي من استنطاق معطيات العصر ان البيئة المصرية بتركيبها البشري ، وبعواملها الفاعلة آنذاك ، لم تكن لتتحمل اكثر من اشارات عابرة الى مثل هذه الامور ، ولم تكن السلطة التنفيذية ، وهي في طبيعتها مفروضة على ارادة الشعب قسرا ، وبقوة السلاح ، لتسمح بمثل هذه الموازنات الخطيرة بين الحالة في الغرب والحالة في مصر او في المشرق كله . ولم تكن القوى المساعدة لها،

من زعماء الطبقات الاقطاعية والدينية المحافظة ، لتقبل بزعزعة اركان المجتمع واعادة بنائه على اسس جديدة متحررة ، خوفا من ان يفقدوا المكاسب المتراكمة التي استأثروا بها دون الاخرين ، واوجدت فارقا اجتماعيا كبيرا بينهم وبين طبقة الفلاحين واصحاب الحرف . ولقد يكون ما نزل بالشيخ الطهطاوي في احدى مراحل حياته ، من ظلم ، ومن تشريد الى السودان ، او قطع عن العمل وتهديد في رزقه، معبرا عن موقف الحذر منه ، والخشية من افكاره ، وبالتالي عقوبة مادية تحل به لتجرؤه على نقل أفكار خطرة بالنسبة الى متنفذي مجتمعه.

اما الشدياق فقد كان ، في كل ما كتب ، منفتح النفس على الغرب ، منطلقا من مبادىء تراوح بين الحيادية المطلقة والاعجاب المتطرف بالحضارة الجديدة. وكان يستمد شجاعته في الحكم على ما يراه من ثقته بأن المشرق ، وان ران عليه الجمود ، مجمل بفضائل جوهرية تؤهله للبقاء والترقي ، ومسلح بانماط راقية من السلوك الاجتماعي . فهو اذا لم يتنازل عن شخصيته المشرقية وان كان انجذابه الى الغرب اقوى من الطهطاوي . وهو لم يذب في بوتقته وان كانت عقيدته الدينية وتقاليد بيئته الاصلية لا تحول دون خسارة ذاته او ذوبانها في مهاجره الجديدة . فلقد ظلت شخصيته ثابتة في التيارات التي تتقاذفها ، واشتدت ملامحها بروزا مع الايام ومع اختبار الناس ، وتبلورت في نهاية المطاف بارتدادها الى الاصول الاسلامية . والبارز في كل ذلك ان الفكرة الآسرة التي توقف عندها مرات ، وعبّر عنها بمختلف الاساليب في عهد الرحلة وعاد اليها في العهد الصحفي من خلال جريدته الجوائب في الاستانة نفسها ، هي التفاوت بين وقوفية البلدان العثمانية ، وتطور الغرب المستمر ، وتوثبه نحو كل مبتكر . ولا شك في ان معظم الادباء العرب والعثمانيين الذين طافوا في اوروبا قد صدمهم هذا الواقع ، وفكروا فيه مليا وتساءلوا عن بواعثه ، وعن المحرضات القادرة على تبديل الاحوال . وكان السياسيون انفسهم النازلون هناك يشاركونهم الرأي ويدركون الضرورة الملحة للخروج من الجمود الى التحرك الموافق لشروط الحياة الجديدة ، ومنهم الامير حسن باشا التونسي الذي نزل مدة في باريس فلما عاد الى بلاده وتولى الحكم سعى في ادخال الاصلاح فيها ، وكذلك امر رشيد باشا العثماني واسماعيل باشا المصري . وفي يقين الشدياق وسواه من الكتّاب الذين قصدوا الى مثل عمله في وضع الرّحلات ، ووصف معالم المدنية في اوروبة ، وتوضيح مناهج الحياة وعادات السكان ، وذكر ابواب الارتزاق عندهم ، ان كل ذلك يؤدي حتما الى تفتح الاذهان في المشرق والتشويق الى الاخذ بالمبتكر المفيد ، لا سيما ان سكان المشرق عربقون في حب التمدن ، وعنهم، كما قال الشدياق في الواسطة « أخذ التمدن والفنون في الاعصر الغوابر » (٤)

كيف ابرز الشدياق البيئة الغربية التي نزلها ؟ وما القضايا التي توقف عندها وحاول تصويرها على انها مرتبطة عضويا بالغرب ولا يمكن فهمه على حقيقته الا في جلائها ؟

لم يلق الا في النادر نظرة شاملة على المجتمع الانكليزي او الفرنسي؛ ولم يتناول كل طبقة منه على حدة، فيستنفد فيها القول ، وينتقل من بعد الى طبقات اخرى، كما انه لم يخص القطاعات المختلفة بدراسة ميدانية او غير ميدانية ، ولم يفطن الى ملامح وجودها ، ولم يتبين سرّ التفاوت بين الناس ، وبواعث الثروة والفقر ، وبطر الاغنياء وبؤس العمال ، ولم يلمح التيارات الاجتماعية العنيفة التي بدأت تعمل عملها ، وتحاول جاهدة في صبر غريب ، زحزحة الاسس الظالمة ، وبناء مجتمع جديد . ولم يتكلم على اصول السياسة والنظم وفعلها في الشعوب التي اهتدت اليها وارتضتها لنفسها ، كأننا به موقن بأن الكون قد وجد ليكون على ما هو عليه في زمنه ، وسيستمر بلا تحوّل او تبدل، وبأن الارادة البشرية عاجزة عن تغيير الشرائع والانظمة لتجعلها اكثر توافقا مع حاجات الناس كهم . كل هذه الامور لم تمر في خاطر الشدياق، واذا ما عنّت له فلا يتوقف عندها ليدرسها ويحللها وينتهي الى المحصلات المنطقية التي تفرض نفسها فرضا في مثل البيئة الغربية . فهو اذا في معظم الاحيان يكتفي بتصوير الواقع وكأننا به مسلم بصحته ومنطقيته واستمراريته . وقد ينتقل من الملاحظة العيانية الى ابداء ما يشعر به كأحساس عابر امام مظالم العيش ، وتوزع الثروات الكيفي ، وامتيازات المستأثرين بالنفوذ .

يرى ان الانكليز يقسمون الى خمس طبقات اجتماعية هي :

١) الامراء والوزراء والنبلاء وذوو المناصب السامية، ويلحق بهم الاساقفة .

٢) الاعيان او العلية ، وهم الذين يعيشون من ارزاقهم واملاكهم لا من معاطاة شغل او حرفة (الملاّكون واصحاب الارض) .

٣) العلماء والقضاة والفقهاء ؛ ويلحق بهم القسّيسون .

٤) التجار واصحاب الدكاكين والكتّاب ، وهم الذين يحتاجون الى تحصيل معاشهم بالاحتراف والاصطراف ، ولكن بلا ابتذال ماء الوجه .

٥) أهل الحرف والصنائع والعملة ويلحق بهم الفلاحون ، وهم الجمهور الاكبر (٥) .

تتألف من الاربع الاولى الفئة المحظوظة ، ومن الاخيرة الفئة الكادحة المعذبة . مع تنبهه الى التفريع الواقعي لا يتبين الروابط التي تشد الطبقات المالكة الى بعضها لتستثمر الطبقة العاملة اقصى استثمار ، ولا يأخذ كل واحدة منها على حدة ويعرض خصائصها ومصادر القوة او الضعف فيها ؛ انما ، في خلال صفحاته ، ينثر

الملاحظات السطحية المبنية على وقائع محسوسة لا على استنتاج او استقراء واضحين .

فالاغنياء ينزلون القصور الشامخة ، وينعمون بطيبات الحياة ، ويستأثرون بالرياش الفخم ،والحدائق الغناء ، والخيول المطهمة ، والعربات المزخرفة .واذا كانت الطبقة الوسطى تعمر المدن ، وتقيم المخازن والمتاجر ، وتنشىء المعامل ، فليس ذلك دليلا على ان الانكليز كلهم اغنياء مترفون ، بل ربما كانت الاقلية وحدها هي التي تنحصر في يدها كل الوسائل المرفهة لتحرم منها الاكثرية الساحقة من الشعب . فان اهل الارياف في انكلترا كأهل القرى في الشام ، بلّ هم اكثر تقشفا وبؤسا ، فيقع لهم في حياتهم اليومية ما لا نجد له مثيلا في بلاد اخرى . فكثيرا ما يرد في صحف الاخبار عن اناس تركوا اولادهم من الاملاق ، او ماتوا من الجوع والبرد او من النوم في الاماكن الرطبة القذرة . وقد يبلغ من فقرهم انهم يتركون أولادهم بغير معمودية لئلا يعطوا القسيس مقابل اتعابه . يقول الشدياق : « وسبب فرط فقر الفلاحين هنا هو كون الارض قد دحاها الله تعالى لان تكون مُلك الامراء والاشراف فقط فيستأجرها منهم اناس مأمونون ، ويستخدمون بعض الفلاحين في حرثها واستغلالها. فلهذا لن تجد في القرية احدا ذا رواء ورياش الا مستأجر الارض وقسيس القرية » (٦) . وقلما يذوق الفلاحون اللحم ، لان جُل أكلهم الخبز والجبن ، وجزّار القرية لا يذبح شاة او بقرة الا مرة في الاسبوع (٧) .

ليس الفقر وحده عدو الفلاحين ، بل ثمة عدو آخر لا يقل عنه اذية وخطرا هو الجهل . كيف يتأتى لهم العلم وهم منذ صغرهم يساعدون آباءهم في قلب الارض وزرعها والعناية بها ، وليس في الارياف مدارس يحصلون فيها مبادىء القراءة والكتابة ؟ وكان الشدياق يلاحظ ان هذه الطبقة من الناس لا تعرف ما يدور في العالم من احداث، وليس لديها أية معلومات تاريخية أو جغرافية عن البلدان القريبة أو البعيدة ، وعما يحدث في مدنها ، وعن شؤون بلادها السياسية والادبية والاجتماعية . ويورد تمثيلا على مبلغ جهل الفلاحين والصناع بانه قيل لأحدهم يوما ان الملك « امر بتسفير خيل في سفن لحرب العدو ، فقال: اني اعجب كيف يقاتل الناس في البحر على الخيل » (٨). واذا علق في اذهانهم شيء عن الشعوب الاخرى فهو مشوّه ، بعيد كلّ البعد عن الواقع ، ومع ذلك فهم مدّعون ، يحسبون انفسهم فوق سكان الارض مكانة وفهما ، ويظنون الرجال في البلدان الاخرى يبيعون نساءهم او يأكلونهن أكلا،وانهم يتقوّتون بالجذور والبقول واوراق الشجر، ويجهلون مثلا ان الفلاح في المشرق افضل منهم حالا من حيث الطعام والسكن واللباس . وينتهز الشدياق هذه المناسبة ليفيض في وصف لذّات الحياة في بلاد الشام ومصر ، ولا سيما جمال الطبيعة ، وطيب الهواء والماء ، وسخاء الارض ، ولذة المطعوم والمشروب، والاستماع الى آلات الطرب . والسمر مع الاصدقاء والاهل (٩) .

والفلاحون الانكليز ، مع هذا ، خلو من كل ما تنعم به الطبقة الفقيرة من اهل المشرق . يبكرون في الغداة الى الكدّ ، ثم يرجعون الى بيوتهم مساء ، فلا يرى الواحد منهم احدا من خلق الله ، ولا يقع بصر احدهم عليه ،وبعد ان يتناولوا طعاما رديئا يذهبون الى فراشهم ليبكروا الى ما كانوا فيه من تعب . فهم اقرب الى الآلة الصماء التي تدور بلا ملل منهم الى الانسان المقبل على الحياة. فاذا جاء يوم الاحد ، وهو يوم الراحة والترفيه عن النفس في معظم بلدان العالم ، انحصر حظهم في الذهاب الى الكنيسة ، فيمكثون هناك ساعتين كالاصنام يتثاءبون في الاولى منهما، ويغفون في الثانية. ثم يعودون الى بيوتهم ليقضوا ما تبقى من الوقت في انتظار يوم العمل المقبل . فليس لديهم ناد أو ملهى يسمرون فيه ويخففون من سأم العيش ورتابته.

ليس عمال المحارف والمصانع بأسعد من زملائهم الفلاحين . هم أيضا يشقون ويكدون النهار كله ، ولا حظ لهم في الليل الا اغماض العينين على فراش قاس في بيت رطب . ومع ذلك فهم الذين اقاموا العمران ، وانشأوا المدن . وشيدوا الابنية . وزخرفوا القصور . وملأوها بالتحف . ونسجوا الاقمشة الثمينة . وخاطوا الالبسة . وصنعوا الادوات المحكمة . والالات الدقيقة . فكيف يحرمون من زرع أيديهم وتعب سواعدهم لتنعم بذلك فئة محدودة هي في معظم الاحيان عطل عن العمل ، لا تحسن حرفة ، ولا تنشط في ميدان .

وليس الجنود متميزين عن المزارعين وسكان القرى وعمال المصانع . ففي الجيش أيضا فوارق طبقية هائلة بين القواد ورجالهم . والجندي من العسكر لا يتيسر له الترقي الى رتبة ضابط وان ارتقى الف حصن للعدو ، وأبدى من الشجاعة والبراعة ما يقصر عنه قائد الجيش نفسه . فهو نفر من يوم اكتتابه الى يوم خروجه من الخدمة أو الحياة . وبعد أن يقضي خمسا وعشرين سنة في العمل المضني يعفى منه ويعين له نحو أربعة قروش في اليوم . والامير أمير والقائد قائد من يوم يولد الى يوم مماته .

وقف الشدياق من هذا التفاوت موقفا حائرا. فهو متألم للبؤس الذي يلفّ الطبقة العاملة ، يشاركها مصيبتها ، وينتقد ما يراه من بؤس ، ويسلم في الوقت نفسه بحتمية وجود الفوارق بين الناس ، فيورد ما تعارف عليه الاثرياء في تبرير تصرفهم ، وينتقدهم في التفصيل وان ماشاهم في الاساس . ويعتمد حلولا سطحية ، بعيدة كل البعد عن حقيقة الصراع ، فيلح على حضّ أصحاب رأس المال على تبديل سياستهم ، وتحسين حالة الفلاحين والعمال والجنود ، بالتوسع عليهم والتنفيس عن كربتهم . ولئن أقرّ بأن من طبيعة

ـ التتمة على الصفحة ٧٧ ـ

الشدياق والطبقة العاملة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٦ ـ

الحياة وجود الغني والفقير في الدنيا « كوجود القبيح والجميل » ، وبأن التفاوت ضروري ، « ولولا ذلك لوقف الكون عن الحركة وتعطلت المصالح » ، فهو يفهم الفقر على طريقته الخاصة ، ويحدد المسموح به بالمؤدي الى عيش خال من البطر والشره ، لا الى عيش مدقع ، مورث للهموم والاحزان والامراض وباعث على الانتحار غرقا أو اختناقا كما هي الحالة في بلاد الانكليز (١٠) « فحاجة الغني الى الفقير أشد من حاجة الفقير الى الغني » (١١) . ولا يجوز أن يشقى الف رجل بل الفان ليسعد رجل واحد (١٢) . ومع ذلك فانه يحبذ السياسة الانكليزية القاضية بارساء دولة الغنى على شقاء الفقراء وبحصر العلم في نطاق محدود لان نشر المعارف بين جميع أفراد الرعية ليس من مصلحة الدولة والكنيسة . والدليل على ذلك ـ كما يقول ـ ان عامة فرنسا المتعلمة صعبة المراس ، واميل الى نقد السلطة وتخطئتها ، فيقع هناك من الاحداث ما لا يقع في غيرها (١٣) .

★ ★ ★

أي تعليل في وسعنا الذهاب اليه لندرك الباعث الذي أدى بالشدياق الى التسليم الساذج بجمودية المجتمع وحتمية وجود الطبقات المتفاوتة المراتب ؟ فهو ـ مع ما أحس به من الغبن اللاحق بالفلاحين والعمال والجند ، ومع ما رآه من فحش الثروات لدى الاغنياء ، وعمق البؤس في الفئات المحرومة ، ومع تأله لما تبينه من ايمان الانكليز بأن الله أراد هذا الواقع ، ونظم بارادته الطبقات والمراتب التي لا تعديل لها الا بارادة سماوية ـ ظل مؤمنا بهذا التفاوت وضرورته لاكتمال مرافق الحياة، لا يخالف من يحيط به الا في أمور جزئية . وقد مثل في تلك المرحلة من حياته موقفا عاما شائعا في البيئات البروتستنتية وكان سندا متينا للرأسمالية ومطامعها التوسعية ، فقواها وعمق جذورها وردها الى مبادىء أدبية سلوكية ، فقبل أن تفلسف الرأسمالية وتبنى على قواعد عقلانية ، وترتكز على أصول آلية محتمة كانت البروتستنتية ، عن وعى للابعاد الاقتصادية أو غير وعي، تعتبر من أقوى أنصارها ، ومن بواعث ازدهارها . فقد حدد لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) وأنصاره من بعد غاية الانسان على الارض بتحقيق المهمة الموكولة اليه داخل المجتمع . ورأوا في هذا التحقيق الطريق الموصلة الى ارضاء الخالق وتمجيده . فاذا قدر له أن يكون عاملا في أرض أو في مصنع فعليه أن ينشط بلا كلل ولا ملل ليأتي بأفضل النتائج ، وبذلك وحده يؤمن خلاص نفسه وسعادته الابدية . وهكذا التقت التعاليم الدينية بالارتباط بمهنة من المهن وتجويدها والاخلاص لها ضمن نظام عام يشمل المجتمع كله ؛ ويصبح فيه الانسان ـ مهما كان موقعه ـ جزءا متمما له . فالعمل الدائب ينقي النفس ، ويحقق الشخصية ، ويتمم الغاية من الاجتماع البشري ، ويمجد اسم الله . ومن هنا نشأ الاعتقاد بأن اضاعة الوقت والاهمال والتواكل هي من اكبر الذنوب وأخطرها . وبذلك أيضا ، وعن غير اتفاق مبيت ، تعاونت الرأسمالية الانكليزية والالمانيةوالاميركية آنذاك مع التعاليم البروتستنتية في المحافظة على الطبقية وتحصينها ، وفي اقرار مثل عليا خلقية ودينية تؤدي الى زيادة ثروات الاغنياء وحصر الفقراء في بؤسهم (١٢) .

سار الشدياق في الطريق المعبدة ، وما حاول ارهاق ذهنه بالتفتيش عن منفذ للمأساة التي تعيشها الجماعات المعذبة في الارض . وما من شك في ان تعديلا طفيفا سيطرأ على تفكيره بعد أن يبدأ احتكاكه بالثقافة الفرنسية والمجتمع الفرنسي ، وسيرى ان ما ظنه جامدا هو دائم التحرك ، وان الطبقات ليس منزلة في وحي ، وان العامل أو المزارع قد يصافيه الحظ فيدع محراثه ليتسلم مقاما سياسيا قياديا ، وان الثورة التي قام بها المكبوتون والجائعون في فرنسا قد عدلت المفاهيم ، وقلبت المقامات المتوارثة رأسا على عقب .

لئن كان من الشطط المنهجي البحث في مواقفه السياسية والاجتماعية على ضوء ما يعمر عصرنا من مدارس ونظريات ، فلا بد لنا ، على قدر استطاعتنا ، من التساؤل اذا كان قد فطن الى واقع انكلترا وفرنسا من حيث وجود التيارات الناشطة هناك ، العاملة على شق طريق لها بالتصادم مع المواقف المتوارثة .

المعروف ان العمال الانكليز قد وعوا الظلم الذي أصابهم ، وتداولوا في تحسين أحوالهم ، ووضعوا ميثاقا يحدد مطالبهم ، ويوحد جهودهم ، وقرروا عام ١٨٤٨ الزحف على لندن ، وهو العام الذي جاء فيه الشدياق الىانكلترا ليقيم فيها مدة طويلة من الزمن (١٥) فتصدى لهم الاشتراكيون المسيحيون، وأحبطوا الحركة، وقاوموا في تدابيرهم واقوالهم كل تفاهم بين الناقمين، وشنعوا على الصراع بين الطبقات الاجتماعية ، وأنكروا أن يكون طريقا مؤدية الى القضاء على المظالم وتفاوت الثروات ، وتشبثوا بمذهبهم القائل بأن العدالة الاجتماعية لا تتأمن الا ببث الفضائل الدينية الداعية العمال الى العمل ، والمهيبة بالاغنياء للتنازل طوعا واحسانا بقسم من مقتنياتهم لتخفيف ويلات البؤساء . وهكذا تأدى عن موقف الاشتراكيين المسيحيين ترسيخ الدين ، واتخاذه حكما ملطفا للمواقف ، وتعطيل موقت لبلورة الاتجاه الفكري نحو صراع الطبقات الاجتماعية . وبيّن من كل هذا ان التشديد على حقوق العمال وواجبات أصحاب الثروات ، مع ما يتجلى في ظاهره

من سعي عملي الى تقريب الشقة بين الفئتين . كان مرتكزا على مبادىء في غاية الخطورة ، منها :

١ ــ التسليم بأن الخالق لما أراد للناس التكاثر والسعي في البسيطة ، قضى بأن يكونوا أسيادا ومسودين ، أغنياء وفقراء ، مرفهين وكادحين . وكل صراع طبقي هو محاولة لمقاومة مشيئة الله في خلقه . واذا كان الفرنسيون قد تجاوزوا هذا التفكير ، وانتقلوا عمليا ، في اثناء ثورتهم وبعدها ، الى مفاهيم جديدة في العلائق التي تربط رأس المال بالعمل ــ وبذلك حدث تفاوت جذري بين الفرنسيين والانكليز ــ فان الشدياق ظل في جميع مواقفه ، مجاريا مذهب الاشتراكيين المسيحيين الانكليز ، وبعيدا كل البعد عن واقع التفكير الفرنسي المتحرر (١٦) .

٢ ــ التسليم أيضا بأن السعي في سبيل الثروة أمر ضروري وواجب لدى الطبقة الميسورة بحيث يصبح اكتساب المال غاية في ذاته وينتفي التعارض بين الحدب على المعذبين في الارض وتكديس الاموال للافادة منها في استثمار الارض والمصانع ، وبالتالي استغلال الفلاح الناشط في الارض والعامل المرتبط بالمصنع . واذا تيسر لافراد معدودين من الطبقة الكادحة قليل من المال صبّ في المصارف التي تمول كبار الملاكين وأصحاب المصانع الضخمة ، وهكذا تترابط حلقات السلسلة بشكل رهيب ، ويتحول الانسان عبدا لرأس المال . ويجري كل هذا برعاية رجال الدين الذين فهموا العلائق بين الطبقات على انها مرتكزة أصلا على مثل هذا الاستغلال .

٣ ــ الاقرار بأن كل تحسين في حالة الفقير هو منّة من الغني وليس حقا شرعيا من جراء تعبه في استخراج خيرات الارض وفي انتاج السلع الاستهلاكية، وبأن الصراع الطبقي خروج من الدين وثورة على مشيئة الله .

هذه المبادىء الثلاثة نجدها بارزة في ملاحظات الشدياق وتعليقاته على ما شاهده من تفاوت في المجتمع الانكليزي والفرنسي معا ، وان كانت اغلبية الفرنسيين قد تجاوزت هذه المرحلة من التفكير السياسي الاجتماعي . وما كان الشدياق في تقربه من مشاهير عصره الغربيين والاتراك والمصريين الا مقرا بمضمونها ، فينتظر من أحد هؤلاء أن يمنّ عليه فيأخذ بيده ويرفعه الى رتبة عالية . وهو لا يفتأ يقبّل أيدي المتنفذين ويتزلف اليهم لاكتساب عطفهم . وما كان خرقه للقوقعة التي انحصر فيها الا تكرما من هؤلاء العظماء . وهو ، وان أقرّ بأن فقدان العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص يفضي الى الحقد الطبقي والتفسخ الخلقي واستغلال القوي الضعيف ، لا يرى وسيلة ناجعة لمداواة الحالة الا بايقاظ وجدان المثريين وتضحيتهم بفئات من رفاهيتهم ، ومشاركتهم الدولة ورجال الدين في انشاء مؤسسات البرّ والاحسان . وهو أيضا ، ان توقف عند مظاهر الترف ومشاهد الفقر المدقع ، لا ينقدها كمظهر من مظاهر الظلم في المجتمع ، بل يقرها اقرارا مبدئيا وعمليا ، ويكتفي بأن يأخذ عليها المغالاة والاسراف . فالاستغلال مشروع ، والحرية وقف على صاحب المال . والقول بالديمقراطية خداع ، والمساواة في طلب العلم خطأ وغواية ، لانها تؤدي الى الاضطراب والاختلال في السياسة ، كما هي الحال في فرنسا حيث يصعب على الحكام تطبيق الانظمة على الرعية ، عكس ما يحدث في انكلترا .

الهوامش

(١) تخليص الابريز ، ص ٤ .
(٢) تخليص الابريز ، ص ٤ .
(٣) تخليص الابريز ، ص ٧ .
(٤) الواسطة ، ص ٤ .
(٥) الكشف ، ص ١١٢ ــ ١١٣ .
(٦) الكشف ، ص ٧٧ .
(٧) الكشف ، ص ٧٧ .
(٨) الساق ، ص ٦٠٤ .
(٩) الساق ، ص ٦٠٤ .
(١٠) الساق ، ص ٦٠١ .
(١١) الساق ، ص ٥٩٩ .
(١٢) الساق ، ص ٦٠٣ .
(١٣) الكشف ، ص ١٤٣ ــ ١٤٤
(١٤) راجع في تفاصيل هذه النظرية وابعادها التاريخية والفكرية والعقائدية : Weber (Max) , L'éthique protestante et l'esprit du capitalisme , éd . Plon , Paris , 1964

(١٥) تأدى التحرك العمالي من البؤس الذي تردت فيه الطبقة الفقيرة من جراء اقبالها على العمل في المصانع وتنافس أفرادها على مراكز محدودة بحيث فرضت عليهم ابخس الاجور . فقد كانوا مجبرين على الكد في ظروف مضنية ومرهقة للصحة مدة خمس عشرة ساعة يوميا مقابل مبلغ لا يكفي لشراء الخبز . وكان المرض متفشيا بينهم ، وينامون في أكواخ معتمة ورطبة وباردة. وانتهى بهم الشقاء الى الانفاق حول مبادىء معينة اطلق عليها اسم الشرطة Charte تضمنت المطالبة بالاقتراع العام والتصويت السري . وتبديل اعضاء البرلمان سنويا ، ودفع تعويضات لممثلي الشعب . وامتدت الحركة من عام ١٨٣٨ الى ١٨٤٨ . ونظم الميثاقيون (انصار الميثاق) المؤتمرات ، ووضعوا العرائض ، واعلنوا الاضرابات ، وبلغت حركتهم اوج تأزمها في ١٠ نيسان سنة ١٨٤٨ لما حاولوا الزحف على لندن ، فقمعت الحكومة ثورتهم وقضت عليها .

(١٦) لا شك في ان بيئة الشدياق المشرقية قد هيأته اصلا لياخذ باقوال الاشتراكية . فمن التهم التي وجهها السلطان سليم ضد الفرنسيين النازلين مصر عام ١٨٩٨ قولهم بان « الناس كلهم متساوون في الانسانية ، متشاركون في البشرية ، ليس لاحد على احد فضل ولا مزية ، وكل منهم في ذاته يدبر نفسه وامر معاشه في حياته ،وعلى هذا الاعتقاد الباطل والرأي الهازل بنوا قواعد جديدة وقوانين اكيدة » (حيدر احمد الشهابي ، لبنان في عهد الامراء الشهابيين ، القسم الاول ، ص ١٨٧ ، طبعة الجامعة اللبنانية ، ١٩٦٩) .